توظيف الطبيعة في قصيدة الغزل الاندلسية

م.م. منال عبد الحي ابراهيم

manal762023@gmail.com

وزارة التربية/ مديرية الكرخ الأولى

الملخص

يهدف البحث من خلال استقراء النصوص الشعرية لقصائد الغزل الأندلسية, للتوصل الى كيفية تجسيد الطبيعة بنوعيها (المتحركة و الصامتة) و الفاظهما ضمن مواقف الشعراء مع المحبوبة, فالمرأة صورة جمالية كما الطبيعة, فهي تجد في المرأة ظلّها وجمالها؛ ولذا كانت الحبيبة روضًا وجنّة وشمسًا ونارًا وظلامًا وليلاً؛ فجاء هذا البحث ليدرس تلك العلاقة, وبحسب طبيعة تلك المواقف التي يمرّ بها الشاعر خلال علاقته مع الحبيبة, من قرب ووصال وودًّ وصفاء أو بعد وهجر وصدًّ وجفاءٍ, من خلال التركيز على استقراء استنباطي للنصوص الشعرية وابراز أثر الطبيعة.

الكلمات المفتاحية: شعر الغزل, الاندلس, قصيدة, الطبيعة, المتحركة, الصامتة.

Employing nature in the Andalusian spinning poem

Manal abd alhay

A teacher at the First Directorate of Education of AlKarkh

Abstract:

The research aims, by extrapolating the poetic texts of the Andalusian spinning poems, to find out how nature Both are silent and mobile its expressions are embodied within the attitudes of poets with the beloved. The woman is an aesthetic image is well find it in its shade and beaty a paradise, sun, fire, darkness, and night. This research came to study that relationship, and according to the nature of those situations that the poet goes through during his relationship with his beloved, from closeness, communication, friendship, serenity, or distance, abandonment, repulsion, and estrangement, by focusing on a deductive extrapolation of poetic texts and highlighting the impact of nature.

Keyword: yarn potry, Andalus, Poem, Nature, moving, Silent.

التمهيد

الطبيعة في شعر الغزل الاندلسي :

احتلت الطبيعة مكانة بارزة في نفوسِ الأندلسيين, وأبدى شعراؤها طاقات إبداعية, وأوصافًا مثيرة مزجت بين العاطفة والخيال[١], فقد منح الله الاندلس طبيعة فاتنة ترتفع فيها الجبال الخضراء, وتمتد في بطاحها السهول الواسعة, وتجري فيها الجداول والانهار, وتغرد على افنان أشجارها العنادل والأطيار, وقد تحدث عن جمالها كلٌ من حلّها, فشغفت بمنظرها القلوب, وهامت بها النفوس, ففتحت في نفوسهم قول الشعر[2].

ومما زاد في جمال شعر الطبيعة, الطريقة الإبداعية التي يقوم بها الشاعر في تكوين صورته مشركًا عواطفه وخياله مع أرض الواقع فـ "الشعر الذي يمثل الطبيعة, وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي, يزيده جمالاً خيال الشاعر, وتتمثل في نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتنها"[3], فلم يترك الشعراء مشهدًا متصلاً بالطبيعة إلا وكان له نصيب في أشعارهم, وخاصة ما يتعلق بالمرأة والتغزل بها, إذ يقول عنهم المقّري "انهم اذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودًا, ومن النرجس عيونًا, ومن الآس أصداغًا, ومن السفرجل نهودًا, ومن قصب السكري قدودًا, ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم, ومن ابنة العنب رُضابًا"[4], فالمرأة صورة من محاسن الطبيعة, والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها, ولذا كانت الحبيبة روضًا وجنة وشمسًا.

ولتأكيد ما ذهبنا اليه نورد بعضًا من النصوص الشعرية التي تناولت الطبيعة المتحركة و الصامتة في القصيدة الاندلسية, اذ جاء البحث على شكل مبحثين, تضمن المبحث الأول : الطبيعة المتحركة في قصيدة الغزل الاندلسية, أما المبحث الثاني فكان عن : الطبيعة الصامتة في تلك القصيدة.

المبحث الأول

الطبيعة المتحركة في قصيدة الغزل الاندلسية :

تعد الطبيعة المتحركة قسم من اقسام البيئة الطبيعية, و يقصد بها ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الانسان, حيث اتقن الشعراء الاندلسيين وصف الحيوان بصورة كبيرة و ان من أوضح الأمثلة على ذلك, قول ابن حزم في مقطوعة له قالها في باب السلو, إذ يقول: (الخفيف)

لا تَلُمْهَا عَلى الّنفارِ وَمَنْعِ الـ وَصْلِ ما هذا لها بِنَكيرِ
هَلْ يَكونُ الهِلالُ غَيرَ بعيدٍ أو يكون الغزال غير نَفورِ[5]

فالشاعر وهو يَهمُّ بوصف مغامرته لرؤية الحبيبة[6], لم يَرَ بُدًا من أن يطرز هذه المغامرة ويذكر شذرات من الطبيعة يزخرف بها ابياته, حيث وظف عنصر الطبيعة في رفد استلهام

الشاعر وقدّم له باعثًا منمقًا أثرى به تجربته الشعرية, مستنبطًا بعض من صفات الطبيعة؛ داعمًا المعنى الذي أراد, وهو يواسي نفسه على بعد حبيبته وسلوه على بعدها, مستشهدًا بالهلال الذي من خصائصه البعد, وبالغزال الذي من طبائعه النفور والابتعاد.

ونجدهُ ايضًا في ابيات أُخر يوظف عنصر الطبيعة, وهو يروي استحلاء الوصال وأتفاق القلوب, اذ يقول: (السريع)

كَمْ دُرْتُ حَولَ الحُبِّ حتّى لقَدَ حَصَلتُ فيه كَحصولِ الفَراشْ
تعْشو الى الوصلِ دواعي الهوى كما سَرَى نحو سَنا النّارِ عَاشْ[7]

فالشاعِر قد صَبَ إحساسه في ذلكَ الوصف, مع انتشائه بالطبيعة؛ فالطبيعة قد امتلكت ألْباب الشعراء, واستحوذت على مشاعرهم و احاسيسهم و "تفاعلوا معها حتى امتزجت بعروقهم وخالطت بشاشتها روحهم الشاعرة"[8]؛ فهو يصف أيام وصاله مع الحبيبة, بصورة جميلة ساعده في ذلك توظيف ألفاظ الطبيعة (الفراش, سنا النار), حيث عقد لوحة شعرية رسمها ببراعة فائقة لصورة الفراش وهو بقرب الضوء, والنار التي يقرب منها ألعاشي المبصر لها ليلاً, قاصدًا نحوها, راجيًا من اصحابها معونة وفضلاً, فقد زادتها الفاظ الطبيعة رقة وحياة.

ومن ذلك ما جاء عنده في باب البين فقد أحسن توظيف الفاظ الطبيعة معبرًا عن الذي حلّ به نتيجة الفراق, "والبيْنُ يُولِدُ الحنين والاهتياج والتّذكر"[9], إذ يقول: (البسيط)

لَيْتَ الغُرابَ يُعِيْدُ اليومَ لي, فَعسى يَبيْنُ بَيْنَهُمُ عَنِّي فَقَدْ وَقَفَا
أقولُ واللَّيْلُ قَدْ أرْخَى أجَلَّتهُ* وَقَدْ تألّى بألاّ يَنْقَضي فَوفَى**
والنَّجمُ قَدْ حارَ في أُفق السَّماء فما يَمضي وَلا هُوَ للتَّغوير مُنصْرِفا
تَخالهُ مُخطِئًا أو خائِفًا وَجِلاً أو راقِبًا مَوْعدًا أو عاشقًا دنفًا[10]

فالشاعر يصور لوحة ترنمت بترانيم حزينة, وظّف فيها الفاظ الطبيعة نحو (الغُرابَ, اللَّيْلُ, النَّجمُ, أُفق السَّماء), فرسم للمتلقي لوحة حركية واضحة أقرّ فيها الشاعر بما حوى صدره من مشاعر وأحاسيس تجسدت بكلمات عبرّت عن حالة الحزن وصعوبة الموقف على الشاعر؛ فالشاعر المبدع, انّما يستقبل الطبيعة بتفاصيلها المختلفة فيمزجها بمشاعره وأفكاره, ويخضعها لتشكيله, فتأتي صورة لفكرته هو وليست صورة لذاتها[11], اذ أطرت اهتياج حنين الحب وتذكر الأحباب.

وهذا ابن زيدون, يستعطف الحبيب عامدًا توظيف مفردات الطبيعة, ليقدم تجسيدًا يوضح لنا مدى حبه, اذ يقول: (البسيط)

يَا مُخْجِلَ الغُصْنِ الفَينان إنْ خَطَرَا وَفَاضِحَ الرَّشَأ الوَسْنَانِ إنْ نَظَرَا
يَفيدكَ مِنّي مُحبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ ما جِئتَ بالذَّنْبِ إلّا جَاءَ مُعْتَذِرَا[12]

فقد صارت الطبيعة جزءًا لا يتجزأ من سلوك الشاعر الاندلسي[13] ومزاجه, فالحبيب هو ذلك الغصن الطويل دلالة على قامته, والغزال الجميل ذو العيون الناعسة؛ معلنًا فداؤه لهذا الحبيب الذي شأنه عجب, اذ يأتي معتذرًا كلّما وُجد مُذنبًا, وعلى الرغم من مبالغة الشاعر في وصف الحبيبة, إلّا أنه أبدع وأجاد ساعده في ذلك توظيف الفاظ الطبيعة (الغصن, الرشأ) فزادت تلك الصورة رقة ولين, فقد قلب الصورة فآلاء الحبيبة قد فاقت تفاصيل الطبيعة وجمالها.

و نجده أيضاً وهو يصف حمامة تشدو بصوت حزين على غصن متمايل يصدر صوتًا أشبه بترانيم الألم ويشبهها بحاله المرتهن وهو الغريب البعيد عن الحبيبة والأهل والوطن, وقد غادره النّوم واستولى على قلبه الحزن فبات كل منهما يشكو حاله للآخر في شوق عارم في قوله: (البسيط)

هَـلْ تَـذَكرُون غَريبًـا عَـادَهُ شَـجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفَا أجْفَانَـهُ الوَسَنُ

يُخْفِـي لَوَاعِجَـهُ والشَّـوْقُ يَفْضَـحُه فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْـه - السِّرُّ وَالعَلَنُ

---------- ----------

وأرَّقَ العَـيْنَ - والظَّـلمَاءُ عاكِفَـةٌ - وَرْقَاءُ, قَدْ شَفَّهَا - إذْ شَفَّني - حَزَنُ

فَبِـتُّ أشْـكُو وتشْـكُو فَـوقَ أيْكَتِهَـا وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِياحًا بَيْنَنَـا الغُصنُ[14]

أبدى الشاعر في هذه الصورة انفعالات عاطفية صدرت من قوة الألم والبعد والحسرة, وهو يرى نفسه نازحًا عن وطنه, نائيًا عن أهله, وبرؤيا بصريّة لمنظر حمامة تشدو بحزن و ألم ربط بينهما وبين دفقات الشوق التي ألمّت به "وقد يشتد انفعال الشاعر وتقوى عاطفته وتزداد عمقًا وعنفًا حين يهيجها نوح الحمام؛ فينطلق الشاعر متأثرًا منفعلاً يستذكر أيامه ويزداد شجوه وهو يرى الخطوب قد تناوبت عليه حتى أسلمته الى الضيق والألم الذي لا يكاد ينتهي حتّى يتجدد"[15], فجمعت هذه الصورة مبتغى الشاعر في إيصال مشاعر الألم التي حلّت به الى المتلقي.

وتتجلى الطبيعة الناطقة أيضًا عند ابي الحسن الحصري, حيث وظّفها لبيان ألم الحب الذي حلّ به, اذ يقول: (الطويل)

أُسودُ الثَّرَى فِي الحَرْبِ تَحْمِي نفوسَها - بنجدَتها ما لم تَعِنَّ* ظِباءُ**[16]

فقد جاء بألفاظ من الطبيعة (اسود, ظباء), حيث أن "وكما عشق شعراء الاندلس الصامت متمثلاً في الحدائق والازهار والفواكه والمياه, عشقوا الجمال الطبيعي الحيّ ممثلاً في الخيل والزّرّافة والحمام والاسد والذئاب والكلاب ونحوها من الحيوان"[17], فالأسود باتت بأحسن

حال من حاله وهي في أعنف المواقف – ساحات الحرب – فهي تستطيع ان تحمي نفسها من الاعداء, بينما الشاعر لا يستطيع ذلك ما دامت حبيبته وظبيته تعارض حبّه وتبتعد عنه نافرةً منه, فمن خلال توظيفه لألفاظ الطبيعة استطاع أن يرسم هذه اللوحة المعبرة.

ومن المجيدين في وصف الطبيعة الشاعر ابن الحداد إذ يقول في مذهب الغزل: (السريع)

قَلْبِـــيَ فـــي ذاتِ الأُثَـــيْلاَتِ* رَهِـــيْنُ لَوْعَـــاتٍ وَرَوْعـــاتِ

فَوَجْهَـــا نَحْـــوَهُمُ إنَّهُـــمُ - وإنْ بَغَـــوْا- قِبْلَـــةُ بُغيـــاتي

وَعَرِّسَـامِـنْ عَقـداتِ***اللِّـوَى بالهَضَـــبَاتِ الزَّهَرِيَّـــاتِ**

وفـي ظِبـاءِ الَبـدْوِ مَـنْ يَـزدَرِي بالظَـــبِّيّاتِ الحَضَـــرِيّاتِ

والشَّمْسُ شَمْسُ الحُسْنِ من بينِهِمْ تحـــتَ غَمامـــاتِ اللِّثامـــاتِ

فَحَـــيِّ عَنْـــي رَشـــأَ المُنحَنَـــى وإنْ أَبَـــى رَجْـــعَ تحيّـــاتي[18]

فقد مزج ابن الحداد بين انفعالاته الطبيعية وآهاته التي تكتنفه وتخيم بظلالها على جسده وروحه؛ حيث مزج بين الحالتين بطريقة مميّزه فاضت شَجَنًا وألمًا يعتصرانه؛ فنجده بدءًا يصف ذلك المكان المفضّل عند الشاعر المليء بهذا الشجر, حيث يقضي مع محبوبته "نويرة" احلى الاوقات وأحبها الى قلبه, فهو رهين اللّوعة والخوف معًا من مراقبة الناس لهما؛ حتّى انه يطلب من قومه الذهاب نحو أهل محبوبتهِ ليبلّغوا سلامه لهم؛ فأنهم – رغم ظلمهم له – مَرتعُ عواطفه, وملاذه الوحيد مؤكدًا لقومه جمال ولطافة هذا المكان الذي يَزْدانُ بأزهارِه, فقبيلته بدويّة تحتقر ازدراءً الفتيات النصرانيات وهم اهل نويرة الحضر, ويقول مصرحًا بأن نويرة هي شمس الحُسن بين النصرانيات اللواتي يضعن اللُّثُم البيض على افواهِهنّ, فهي شمس قد احتجبتْ في نقاب غيمها, ويستمر الشاعر على تأكيد استعطافه لمحبوبته التي تأبى ان تعامله بالمثل ويوصي بتبليغ تحياته وسلامه لها, فهي ذلك الظبي الساكن في الوادي مبرزاً المعنى المطلوب من خلال لفظة الظبي.

ومن الشعراء الذين مزجوا الطبيعة بالغزل أيضًا؛ المعتمد بن عبّاد, اذ يقول: (الخفيف)

يا هِلالاً, إذا بَدَا لِي تَجَلَّتْ عَنْ فُؤَادِي دُجَنّةُ*الكُرُباتِ

وَغَزَالاً لِمُقلَتيهِ بِقَلْبِي فتَكَاتٌ كَأَنَّها فَتَكاتِي[19]

فنجد هذا التناسب بين الفاظ الطبيعة (لاسيما المتحركة منها)؛ بين الهلال الذي يصف حبيبته به والدُجنة ذلك الظلام الذي ينزاح عن قلبه عند ظهورها, والغزال الذي عينيه قد اصابت قلبه وفتكت به أيما فتك, كل تلك الإضاءات الطبيعية قد نوّرت النص وأحالته الى لوحة, زيادةً في العواطف والوله, مترجمًا بهذا عن رقته مع من يحب.

ومن الشعراء الذين وظّفوا الفاظ الطبيعة المتحركة, الشاعر ابن صارة (ت٥١٧هـ)[20] في مقطوعة يتحدث فيها عن تمكن الحب من قلبه, مصرحًا بمعاناته من الوجد وتباريح الهوى, اذ يقول: (البسيط)

يا ظبيةً كَنَسَتْ فِي أَضْلُعِي وَرَعَتْ سَوادَ قلبي ورعى الظبيةُ الشّيح*
أبَتْ جُفُونُكِ إلا أَنْ يَكونَ لها هوىً صَحيح وأكباد مجاريح
كَمْ ذا يَكْدِرُ بِي مِنكِ الصفاء وكَمْ تَهدِي الى كَبِدي فِيك التَّباريح
لَمْ يَخْلُ وَجْهُكِ لِي من وجهِ مُرْتَقِبٍ أنتِ الزّلالُ الذي فيه التّمَاسيح[21]

حيث سكنت المحبوبة التي وصفها بالظبية أضلعه مهدية لقلبه من جفونها هوى صحيحًا, ولكبده ندبًا وجروحًا, وقد أرسل الشكوى مما أصابه من الكدر والشوق المهلك لهذه المحبوبة التي لا تغفل عنها عين الرقيب الذي يحول بينه وبينهما كما تحول التماسيح دون ورود الماء الصافي العذب, اذ "وفي أحيان كثيرة يخرج الشاعر من داخل نفسه الى رحاب الطبيعة, يُحمّلها رسائل الشوق والحنين والأمل"[22], فأضفت ألفاظ الطبيعة وتوصيف الشاعر لها قوة طُليت به الابيات نتيجة فعل الواشي والرقيب.

وبهذا نكونُ قد بّينا اثر الفاظ الطبيعة المتحركة عند الشعراء مع الحبيبة, حيث تميّزوا ايّما تميّز وهذا ما لمسناه من خلال النصوص الشعرية.

ولعلّ مفاد هذا التميّز في شعر الطبيعة هو المشاركة بين مشاعر الشعراء ومشاهد الطبيعة بلغت أحيانًا حد الاندماج في بعض الشعر الأندلسي[23].

المبحث الثاني:

الطبيعة الصامتة في قصيدة الغزل الاندلسية :

وهي ممثلة بما تحويه الطبيعة من رياض و زهور و انهار و ابنية و قصور. لذا سنقف على النماذج الشعرية المجسدة للطبيعة الصامتة, كالرياض, و الزهور, و الثمار, و الأنهار, و ما شابهها.

فالطبيعة والشاعر صنوان لا يفترقان فكأنما خلقا ليكونا معًا, فالشاعر العربيّ قد ألف الطبيعة وانتسب إليها فتقلباته من تقلباتها, وانبهاره منها, فالمعادلة فيها بُعد فلسفي؛ إذ أن هذا

التناغم مع الطبيعة ينتهجه الشاعر عن طريق اللاوعي ويكون هذا التناغم أشبه بالالتصاق بها أو اللجوء اليها[24].

ونجد ذلك عند ابن حزم و هو يصف قساوة الحب المتأتي من السَّهر "والسّهرُ من أعراض المحبين, وقد أكثر الشعراء في وصفه, وحَكَمُوا أنهم رُعاة الكواكب, وَ وَاصِفُوا طول الليل"[25], اذ يقول ذاكرًا كتمان السّر, أنه يتوسّم بالعلامات: (الوافر)

تعلّمْتِ السَّحائبُ مِنْ شؤوني فَعمَّت بالحَيا السَّكْبِ الهَتُونِ
وَهَذا اللّيلُ فيكَ غَدا رّفيقي بذلك أم على سَهري مُعيني
فإنْ لَم يَنْقَضِ الإظلام ألا ما أطبقت نومًا جُفوني
فليس إلى النّهارِ لنا سبيلٌ وسُهدٌ زائدٌ في كُلِّ حينِ
كأنّ نجومَه والغَيمَ يُخفي سناها عن مُلاحظة العُيونِ[26]

فقد خلق صورة أدّت الى تفاعل المتلقي مع براعة الشاعر في توظيفه لألفاظ الطبيعة خاصة الصامت منها, والمقصود بها، مظاهرها المرئية المتجسدة للعيان في السهول والبوادي والحدائق والحقول القصور, ووصفهم للأزهار وألوانها والتماثيل المتزينة في الحدائق[27], فجاء بـ (السَّحائبُ, اللّيلُ, الظلام, النّهار, النجوم, و الغَيم)؛ معبّرًا عن سُهاده وشدّة ليله, فقد تعلمت السحاب المكتنزة بالمطر من طبيعة حال عيونه المحمّلة بالدّموع؛ ليبيّن حقيقة الألم وهو يذرف الدموع شوقًا, حتى الليل قد أصبح الرفيق المعين المواسي له في سهره؛ فقد آيس من بلوغ ليله نهارًا يُنبيء باللُقيا والوصال؛ فقد زاد السهر والسهاد؛ وتلك النجوم والغيوم قد زادت الحال سوءًا؛ فهي تحجب عن عيونه سنا وبريق وجه الحبيبة, وبتوظيفه ألفاظ الطبيعة على هذا النحو؛ قد شدَّ انتباه المتلقي وعظّمَ لديه الشعور بالأسى وهو منفعل مع الشاعر يشاركه آلامه وأحزانه.

ويكثر في غزل الاندلسيين استعانتهم في وصف جمال الحبيبة بالصورة اللونية مع الفاظ الطبيعة, حيث ينتمي هذا الضرب الى حاسة البصر, فهي احدى مكونات الصورة البصرية؛ لكون "اللون يرتبط أول ما يرتبط بالبصر, ولا يأتي حلية أو زينة تسر الناظرين أو تسوؤهم وحسب, وإنما يأتي تعويل الشعراء على الألوان بناء على تجارب شعرية دقيقة ومحسوبة تتعامل مع الألوان تعاملاً ينم عن ادراك ووعي بدور اللون في سياق التعبير الشعري"[٢٨], وأهم ما تعتمد عليه الصورة البصرية هو اللون ذلك انه "احد الصفات الملموسة الأكثر بروزًا في أشياء هذا العالم"[٢٩], لأن الاشكال والالوان وسيلة الشاعر في بيان تجربته الشعرية ناقلاً ذلك من معان مادية الى معان محسوسة, يهدف عبرها أن يصل الى ذهن المتلقي. ونجد هذا عند ابن زيدون إذ يقول: (البسيط)

والرَّوضُ – عَنْ مَائِهِ الفِضِّيِّ – مُبْتسِمٌ كَمَا شَقَقْتَ – عن اللَّبَاتِ* – أَطْواقَا[٣٠]

يصفُ الشاعر الحبيبة فهي ذلك الروض المكسو بالخضرة والازهار, المتلألىء بالندى, فبدا ضاحكًا يذكره بمنظر القلائد في الأعناق, "فالروضيّات مما أُغرم به الاندلسيون, فوصفوا مياهها وازهارها, وهم لم يكتفوا بوصفها وصفًا خارجيًا بل عمدوا الى إضفاء الحياة عليها, ولَوَّنوها بألوانهم النفسية الآنيّة"[٣١]. إنّ استلهام الشاعر ألفاظه من الطبيعة أعطى للبيت رقة ولين وعذوبة فهذا المزج أضفى أجواء بين الألفاظ , بحيث يجعل المتلقي يستمتع بسماع البيت لعذوبته ولينه, فعندما شبه الحبيبة بالروض بكل ما يحتويه من جمال ورقة وديمومة ونضارة, ويتدرج الى الماء ذي اللون الفضي دلالة على صفائه فهو مبتسم راضٍ – كحال الشاعر– من رقيق الى أرق, فكان دمجه هذا قويًا جذابًا كجمال حبيبته المتزينة بالحلي والأطواق.

ويوظّف ابن زيدون ايضًا الفاظ الطبيعة في قصيدة "ارضاء الحبيب" اذ يقول في ابيات منها: (الرمل)

يَا فَتِيتَ المِسْكِ, يا شَمْسَ الضُّحَا يَا قَضِيبَ الْبَانِ, يا رِيمَ الفَلَا:
إنْ تَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيرَ الرِّضا مِنْكَ, لا بُلِّغْتُ ذَاكَ الأَمَلَا !! [٣٢]

إذ يحاول الشاعر أن يطلي على حبيبته من رقة مشاعره مستعينًا بألفاظ الطبيعة, فهي المسك المفتت, اشارة الى الرائحة الطيبة, أما لفظة "الشمس" التي تعددت رموزها في الشعر العربي فقدّسها العرب في الجاهلية, وعُبدت في أماكن معينة من بلادهم؛ كونها الكوكب الذي يمنحهم الضوء والدفء[٣٣]؛ لذلك تعددت صورها ورموزها في معجم الشعراء, ففي غرض الغزل تمنح لفظة الشمس رقة وعذوبة؛ فوجه المحبوبة يشع نورًا كالشمس في ضيائها, اشارة الى جمالها, وهي قضيب البان, إشارة الى جمال القوام, وهي غزالة الفلا التي تَغنّى بحسنها الشعراء, فقد رسم الشاعر من خلال أوصاف الطبيعة تراكيب جميلة ورقيقة, ولم يكتفِ بهذا وحسب بل نجده يصرح بان كل أمله في الحياة الحصول على رضا الحبيبة, مشترطًا على نفسه أنّه لو كان له أمل غير رضاها؛ لبقي عاجزًا عن بلوغ هذا الأمل؛ وهذا دليل اخلاصه وتفانيه في حبّه.

ونجد الشاعر أبو الحسن الحصري أيضا يواكب الشعراء في ذكرهم الطبيعة المتلونة التي تلعب بعقولهم في اللّيل والنّهار, فهي تلك الحالة التي يمتزج معها كل شيء موجود على ظهر البسيطة ليتفاعل معها ويتناغم مع سحرها الصامت المظلم والمنير, إذ يقول: (الطويل)

دُجى الليل صُبْحٌ فيكِ إذ أنْتِ مَطْلَعٌ لِكُلِّ هِلالٍ أطلعتْهُ سُعُودُ* [34]

أراد الشاعر أن يصور مدى حبه لمحبوبته؛ ناظرًا لها بعين الرِّضا التام, فهي ذلك الصبح المنير في ظلمة الليل, وهي هلال أطلعته نجوم السعادة, فرسم بمقدرته وخياله لوحة مفعمة بالرقة والحيوية, فجاءت الالفاظ رقيقة وكذلك الصور, لاسيما توظيفه الفاظ الطبيعة.

ونجده أيضًا قد وظّف الصورة الشميّة, وهي الصورة التي يعتمدها الشعراء, والتي يستمدونها من طبيعتهم كرائحة الأزهار, والنباتات, ونسيم الرّياح, وغيرها من تلك الروائح الأخرى

التي تشاركها حواس أخرى في إدراك المحسوسات[35], فللطبيعة صفات بيّنها الشعراء في جمال مياهها, ونباتاتها, وسمائها, وأرضها, فضلاً عن طيب نسيم هوائها, اذ يقول: (الطويل)

سَلامٌ عَلى الأَحبابِ تُفتِقُه الصِّبا كَمَا فُتِقَ المِسْكُ الزّكيُّ التّنَفُّسِ
سُقُوا الغَيْثَ حَتّى يُورِقَ العيشَ عِنْدهُم وَيَخْتالُ في حَلْيٍ وَأثوابِ سُندُسِ
سَوَاءٌ عَليَّ اللّيلُ وَالصُّبحُ بَعْدَهُم وَلَو بِتُّ فيهم لا نجلى كلُّ حِنْدِسِ
سَناهم سِرَاجِي والخُدودَ شَقائقي وتلكَ العيونُ البابليّاتُ نَرْجِسي

سباني بِمَخطوطٍ مِنَ المِسكِ أسودٍ على صحنِ مَسبوكٍ مِنَ التِّبْرِ أَمْلَسِ
سُوَيْداءُ قَلْبي لِلأَحِبَّةِ مَنْزِلٌ وذِكرُهُمُ في ظُلْمَةِ اللّيلِ مُؤْنِسي[36]

يشكل الشاعر صورته بإحساس وأريحية اكتسبها من جمال اللحظة التي عاشها, فهو يهدي السلام والتحية مع الرياح اللينة المعطرة بالمسك الزكي التي لمست الأنوف وتنفسها, والتي تبعث البهجة والسرور للأحباب, معبرًا عن اشتياقه, مناجيًا المطر أن يسقي ديارهم؛ لتورق وتزدهر أرضهم متجملةً بأجمل الأثواب من النباتات والزهور, وتبدو مختالة مزيّنة, فالليل بظلامه سواءٌ عنده مع الصبح بنوره, ولو كان قريبًا من تلك الديار لاختفى وانكشف الظلام كله؛ وكيف لا!! فسنا الأحبّةِ ضياؤه, والخدود ورودٌ, والعيون البابليات نرجس بلونها الأخّاذ, فلقد تملكه ذلك الحبيب بكل صفاته الحسنة؛ فهو ساكن في لُبِّ قلبه, وذكره مؤنس وحشته في ظلام الليل, فهذا المزج بين صفات الحبيبة وألفاظ الطبيعة أضفى رقة وليناً وشفافية على الابيات, وهذا التنوع بالاختيار والصياغة التي أثرتها الطبيعة يؤكد كيف استحوذت الطبيعة على افكار الشعراء ومشاعرهم فـ "أساس الحضارة الادبية في الاندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسمات أنفاسًا موسيقية تؤخذ شعرًا وتلفظ لحنًا؛ وبذلك حببت الى اهلها الأدب وطبُعوا على هذه الشيمة"[37].

وهكذا تكون الطبيعة قد تمكّنت من نفس الشاعر الاندلسي وملكت عليه اجوائه الداخلية والخارجية؛ فهو مغرم بالمشاهدة لتلك المشاهدات لتتحول الى تجاذبات بين نفسه المضطربة وتلاوين تلك الطبيعة السَّاحرة, مما ولّدت عنده ذلك البعد النفسي الذي بات ينتاب نفسه الشاعرة, "فترى القصيدة الواصفة تتلون فيها المشاعر بأسلوب تمازجي مع المادة المجردة"[38].

وقالَ ايضًا, واصفًا نويرة ومتغزلاً بها؛ موظفًا الطبيعة والفاظها, إذ يقول: (الطويل)

وَطَيّ الخِمَارِ الجَوْنِ*حُسنٌ كأَنَّما تَجمَّعَ فيه البَدْرُ واللّيلُ والدُّجْنُ
وَفِي ذلكَ الوَادِي رَشًا أَضْلُعِي له كِناسٌوَقُمْرِيٌّ**فُؤَادِي لَهُ وَكْنُ**[39]

أراد الشاعر أن يصور حبيبته يغطّيها ذلك الخمار حيث وجهها المشرق بدرًا, وشعرها الاسود ليلاً ؛ جاعلاً من أضلعه مكانًا آمنًا لمحبوبته نويرة؛ كما يجعل قلبه مُستراحًا دافئا لها؛

وما ذاك إلّا من حبّه وعطفه معها, فضلاً عن ذلك عاطفة الشاعر المرهفة التي انتقت هذه الالفاظ ليعبرّ بها عن فكرته, فكيف لا يصل الشعراء الى هذا المستوى من التعبير و"الطبيعة تحيط بهم من كل جانب برياضها الغنّاء ومناظرها الآسرة, فكثيرًا ما تقع أنظارهم على البهجة والتناسق, وكثيرًا ما يعطرهم أريج الأزهار والورود, وتسكرهم نسمات الحقول والمروج"[40], فينتقوا منها صورًا والفاظًا ترجمت أفكارهم لا سيما رقتهم في غزلهم.

وهذا شاعرنا ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ) يصف لقاءهُ مع حبيبته, مضيفًا عليه الفاظ الطبيعة؛ ليقرب المعنى الذي أراد, اذ يقول: (الطويل)

وَزَارَ بِهِ نَجْمَ السُّهى قَمَرُ الدُّجى فَبَاتَا بِحَالِ الفَرقَدَيْنِ *** وِصَالاَ**

إذا مَا هَدانِي فِيهِ بَارِقُ مُبْسِمٍ أَجَنّ* دُجى ** فَرْعٍ فَحِرْتُ ضَلاَلاَ**[41]

فهو نجم وحبيبته قمر يتبادلان الوصال, ونور كلّ منهما يكاد يطغى على الآخر, إضافةً الى ضوء البرق الذي يضيء ظلمة ليل الهجر, اذ أضفت الفاظ الطبيعة وكست النص رقة تزامنًا مع لقاء الحبيبة.

وختامًا لما سبق فإنّ استحواذ الطبيعة (المتحركة, والصامتة) على أشعار الاندلسيين بصفة عامة, حمل كثيرًا من المميزات التي ارتقت بمستوى الأسلوب الفني المتمتع بألفاظٍ ومعانٍ أطربت أُذن السامع, وشكلت أريحيّة مع الشاعر حين وصفها, فوقف عندها الشعراء واستحسنوا مناظرها الخلاّبة, ولا سيما بما حباها الله من جمال يبهر العقول؛ فجاءوا على وصفها بجزيئياتها. فقد شغلت أذهانهم مثيرة في داخلهم الرّاحة النفسيّة, مستشعرين بجماليتها, فـ "قد استحوذت بمفاتنها الخلاّبة على أرواحهم وتعلقوا بها تعلق الفطيم لأُمّه؛ فهي الأم والوطن, وهي الجمال والبهاء والعيش الرغيد, فتجلّى حبّهم لها في أشعارهم ومؤلفاتهم"[42]. إذ كانوا خير سفراء لهذه الطبيعة مرتحلين معها أينما حلّو, في أفراحهم وأتراحهم, فكانت لهم خير معين في كل أحوالهم, متخذين منها الصديق الوفيّ الذي يلبي كل ما يطلبون بإخلاص ووفاء.

الهوامش:

(١) ينظر: في الأدب الاندلسي, د. جودت الركابي, ١٣٠.

(٢) ينظر: في الأدب الاندلسي, د. محمد رضوان الداية, ١٢٠- ١٢١.

(٣) في الأدب الاندلسي, د.جودت الركابي, ١٢٦ .

(٤) نفح الطيب, ١ / ٢٢٣.

(٥) ديوان إبن حزم, ٧٩. وينظر: طوق الحمامة, ١٧٧.

(٦) ينظر: طوق الحمامة, ١٧٦ – ١٧٧.

(٧) ديوان ابن حزم, ٩٣. وينظر: طوق الحمامة, ١٠٠.

(٨) ليس في شعر ابن زيدون, ٦٠ .

(٩) طوق الحمامة, ١٥٦.

* أجَلّته: الجَلُّ, بالفتح: شراع السَّفينة, وجمعه جُلُول. ينظر: لسان العرب, مادة (جَلَل).

** تألّى: آلَى يُؤْلي إيلاءً: حَلَفَ. ويقال إنّي لا آلُوكَ نُصحًا أي لا أفْتُر ولا أُ قَصرِّ. ينظر: لسان العرب, مادة (ألا).

(١٠) ديوان ابن حزم, ١٠٤.

(١١) ينظر: الصورة في الشعر العربي, ٣١.

(١٢) ديوان ابن زيدون, ١٧٤ .

(١٣) ينظر: الأخرس الناطق وقفة عند جبل بن خفاجة, ٢٣٥.

(١٤) ديوان ابن زيدون, ١٦٢.

(١٥) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين, ١١٤.

*** تعنّ: عَنّ الشيء يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنَنًا وعُنونًا: ظهر أمامك. والعِنّة والعُنّة: الاعتراض بالفُضول. وامرأة مِعَنّة: تعتّنّ وتعترض في كلّ شيء. ينظر: لسان العرب, مادة (عنن).

(١٦) ديوان ابو الحسن الحصري (المعشرات), ١١٢.

(١٧) البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف, ١٤٧.

* الأُثيلاَتِ: الأُثْل: شجر يُشبه الطّرفاء إلا إنّه أعظم منه وأكرم, ينظر لسان العرب مادة (أثل).

** عرّسا: المُعَرِّس: الذي يسير نهارهُ ويَعَرِّس أي يَنزِل أول الليل, والتَّعريس نزول القوم في السَّفر من آخر اللّيل, ينظر: لسان العرب, مادة (عرَس).

*** عقدات: تَعَقَّد الثَّرى: جَعُدَ, والعَقِد: المتراكم من الرَّمل, واحُدهُ عَقدِة, ينظر: لسان العرب, مادة (عقد).

(١٨) ديوان ابن الحداد, ١٥٦ – ١٥٧, ١٦٠.

* دُجنّة: الدُّجنّات, جمع دُجنّة, وهي الظّلمة, ينظر: لسان العرب, مادة (دجن).

(١٩) ديوان المعتمد بن عبّاد, ٤.

(٢٠) ابن صارة الشنتريني: ابو محمد عبدالله بن محمد بن صارة البكري الاندلسي الشنتيري الشاعر المشهور, ويقال في اسم جدّه: صارة وسارة, وكانت وفاته سنة (٥١٧هـ) بمدينة المرية, ينظر: وفيات الأعيان, ٣/٩٣– ٩٥.

*الشيّح: نباتٌ سهليّ يتّخَذُ مِن بعضه المكانس, وهو من الأمرار, له رائحة طيبة وطعم مُرّ, وهو مرعى للخيل والنَّعَم ومنابته القيعان والرِّياض, ينظر: لسان العرب, مادة (شيح).

(٢١) ديوان ابن صارة الشنتريني الاندلسي (حياته وشعره), ١٩٢.

(٢٢) التجربة الانسانية في نونية ابن زيدون وشخصية الشاعر الاندلسي, ٢٩.

(٢٣) ينظر: ملامح الشعر الاندلسي, ٢٤٥.

(٢٤) ينظر: نظرات في التراث (مباحث الطبيعة عند الكندي), ٥٠.

(٢٥) طوق الحمامة, ٤٠.

(٢٦) ديوان ابن حزم, ١٤٧ – ١٤٨.

(٢٧) ينظر: في الأدب الاندلسي, د.جودت الركابي, ١٢٥.

(٢٨) الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي),٢٨.

(٢٩) بنية اللغة الشعرية, ١٢٧.

* اللّبات: وهو موضع القلادة من الصَّدر من كُل شئ, والجمع الألباب, ينظر: لسان العرب, مادة (لبب).

(٣٠) ديوان ابن زيدون, ١٣٩.

(٣١) الادب الاندلسي في عهد الموحدين, ٦٥.

(٣٢) ديوان ابن زيدون,١٦٦.

(٣٣) ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري, ٥٨٧.

* سُعُود: سَعَد يومُنا, يَسعد سُعُودا, والسُّعود: سعود النّجوم, وهي الكواكب التي يُقال لها لِكُلِّ واحدٍ منها سَعْدُ كذا, وهي عَشْرةُ أنجم, ينظر: لسان العرب, مادة (سعد).

(٣٤) ديوان ابو الحسن الحصري (المعشرات), ٢١٩.

(٣٥) ينظر: الشّم في الشّعر العربيّ, ٥.

(٣٦) ديوان ابو الحسن الحصري (المعشرات), ٢٢٣.

(٣٧) تأريخ آداب العرب, ٣/ ٢٤١.

(٣٨) الشعر الاندلسي في عهد بني الاحمر, ٧١١.

* الجَوْن: الاسود اليحموميّ, والانثى جوْنة, الجون الاسود المشربُ حُمْرة, ينظر: لسان العرب مادة (جون).

** كِناس: المِكْنِسُ: مولج الوَحْش مِن الظِّباء والبقر تَسْتكِنُّ فيه من الحرّ, وهو الكِناس, ينظر لسان العرب: مادة (كنس).

*** قُمْريّ: طائرٌ يشبه الحَمَام القُمْر البيض, ينظر: لسان العرب, مادة (قمر).

**** وَكْنُ: الوَكْن, بالفتح: عُشُّ الطائر في جبلٍ أو جدار, والجمع : أوْكُنٌ ووُكُنٌ ووكُون, ينظر: لسان العرب مادة (وَكَن).

(٣٩) ديوان ابن الحداد, ٢٥٦ – ٢٥٧.

(٤٠) الشعر في ظل بني عباد, ١٠١.

** الفرقدان: نجمان في السماء لا يغرُبان ولكنّهما يطوفان بالجدي, ينظر: لسان العرب, مادة (فرقد).

* أجَنَّ: جَنَّ الشيء يَجُنُّه جَنًّا: ستره, ينظر: لسان العرب, مادة (جنن).

** دُجى: الدُّجةُ : شِدَّةُ الظلمة, ينظر: لسان العرب, مادة (دجج).

(٤١) ديوان ابن خفاجة, ١٢٤.

(٤٢) في الشعر الاندلسي, ١٢.

المصادر والمراجع:

١. ابو الحسن الحصري القيرواني (عصره – حياته – ورسائله) (ديوان المتفرقات – يا ليل الصب – المعشرات – اقتراح القريح), تحقيق, محمد المرزوقي, والجيلاني بن الحاج يحيى – مكتبة المنار – تونس, (د.ط), ١٩٦٣م.

٢. الأخرس الناطق وقفة عند جبل بن خفاجة, حاتم محمد الصكر, كتاب التراث, دار الجاحظ, منشورات مجلة الطليعة الأدبية, ١٩٧٩م.

٣. الأدب الاندلسي في عهد الموحدين, د.حكمت علي الأوسي, مكتبة الخانجي, القاهرة, ط١, ١٩٧٦م.

٤. البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف, د.سعد اسماعيل شلبي, دار النهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة, (د.ت).

٥. التجربة الانسانية في نونية ابن زيدون, وشخصية الشاعر الاندلسي, د.سعيد حسين منصور, دار المتنبي, الدوحة – قطر, ١٩٨٤م.

٦. الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر, صور جهادية بطولية: د.رعد ناصر الوائلي, مركز عبادي للدراسات والنشر, صنعاء, ط١, ٢٠٠٠م.

٧. الشعر في ظل بني عبّاد, د.محمد مجيد السعيد, مطبعة النعمان – النجف الأشرف, ١٩٧٢م.

٨. الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي), محمد علي كندي, دار الكتاب الجديد, طرابلس – لبنان, ٢٠٠٣.

٩. الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري (دراسة في أصولها وتطورها, د.علي البطل, دار الاندلس, ط٢, ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

١٠. الشّم في الشعر العربي, د.علي شلق, دار الأندلس – بيروت, ط١, ١٩٨٤م.

١١. بنية اللغة الشعرية, جان كوهن, ترجمة: محمد الولي, ومحمد العمري, دار توبقال للنشر, الدار البيضاء – المغرب, ط١, ١٩٨٦م.

١٢. تأريخ آداب العرب, د. مصطفى صادق الرافعي, المكتبة العصرية, صيدا – بيروت, (د.ط), (د.ت).

١٣. ديوان ابن الحداد الاندلسي, (ت٤٨٠هـ), جمعه وحققه وشرحه وقدّم له: د.يوسف علي طويل, دار الكتب العلمية – بيروت, ط١, ١٩٩٠م.

١٤. ديوان ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦هـ), جمع وتحقيق, عبد العزيز ابراهيم, دار صادر – بيروت, ط١, ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

١٥. ديوان ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ), تحقيق, د.سيد غازي, منشأة المعارف الاسكندرية, ط٢, ١٩٦٠م.

١٦. ديوان ابن زيدون ورسائله (ت٤٦٣هـ), شرح وتحقيق, علي عبد العظيم, دار نهضة مصر – القاهرة, ١٩٥٧م.

١٧. ديوان ابن صارة الشنتريني الاندلسي (حياته وشعره), د.حسن احمد النّوش, دار ومكتبة الهلال, ط١, ١٩٩٦م.

١٨. ديوان المعتمد بن عبّاد (ملك أشبيلية), جمعه وحققه, أحمد أحمد بدوي, حامد عبد المجيد, الطبعة الأميرية بالقاهرة, (د.ت).

١٩. طوق الحمامة في الألفة والآلآف, لابن حزم الاندلسي (ت٤٥٦هـ), حققه وقدم له: صلاح الدين القاسمي, دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع – تونس, ١٩٨٠م.

٢٠. في الأدب الأندلسي, د.جودت الركابي, دار المعارف – مصر, ط٣, ١٩٦٠م.

٢١. في الأدب الأندلسي, د.محمد رضوان الداية, دار الفكر – دمشق, ط١, ١٩٨٩م.

٢٢. في الشعر الاندلسي, عدنان صالح مصطفى, دار الثقافة – قطر, ١٩٨٧م.

٢٣. لسان العرب, ابن منظور (ت٧١١هـ), دار صادر – بيروت, ط٣, ١٤١٤هـ.

٢٤. ملامح الشعر الاندلسي, د.عمر الدقاق, دار الشرق العربي, بيروت, (د.ت).

٢٥. نظرات في التراث (مباحث الطبيعة عند الكندي), محمد مبارك, دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد, ط١, ١٩٨٦م.

٢٦. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب, احمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ), تحقيق, محمد محي الدين عبد الحميد, القاهرة, ١٩٤٩م.

٢٧. وصف الحيوان في الشعر الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين, د.حازم عبد الله خضر, دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد, (د.ط), ١٩٨٧م.

٢٨. وفيات الاعيان, أبن خلكان (ت ٦٨١ هـ), تح, احسان عباد, دار صادر–بيروت,(د.ط), ١٩٠٠م.

المجلات والدوريات:

١. ليس في شعر ابن زيدون, د.ناصر الدين الأسد, مجلة الكتاب دار الحرية بغداد, السنة التاسعة, ع (١١ – ١٢) ١٩٧٥م.